الفصل الثالث

البنية التعبيرية في «الظلال»

كلمة في البنية التعبيرية :

لسيد قطب ~ تعالى ريشة ريضة طيعة ذات ألوان زاهية تنبض بالحياة وتنضح بالحركة تنقل الكلمة على الورقة فتطلع لك الصورة اللفظية ، أو البنية التعبيرية محملة بحشد من الدلالات والمشاعر والمواقف متميزة عن كل البنى التعبيرية التي نعرفها عند غيره من رواد الأدب والفكر والثقافة والمعرفة ، فهي تدل عليه ونشير إليه ، ولا تكلف عناء في الكشف عن صاحبها أبدا ؛ لذلك لا نبالغ إذا قلنا : أن البنية التعبيرية عند سيد قطب مدرسة قائمة الذات بينة المعالم والحدود ، واضحة الصورة وهذه المدرسة في التعبير هي التي سلكها في تفسيره «الظلال» .

وقد تسألني إذا كانت البنية التعبيرية عند سيد قطب تؤلف مدرسة أسلوبية ، فما هي خصائص هذه المدرسة أجيبك : إن خصائص هذه المدرسة تظهر عندي فيما يلي :

أ ـ الإشراف البياني :

نعني بالإشراق البياني جمال التركيب ، ورواء الصياغة وسلاسة التعبير ، ووضوح الفكرة ، ولقد كان سيد قطب دوما يعتلي بالصياغة المختارة والمضمون المختار ، وقد تميزت ريشته بمقدرة فذة في هذا المجال؛ إذ استسلمت له اللغة منقادة طائعة تهبه القيادة ، ونقدم له من كنوزها ما تحفل به خزائنها من أسرار .

إن اللغة في الحق قد بايعته بالإمارة فأصبح من أمراء البيان العربي في العصر الحديث .

فبالإشراف البياني هذا تناول بالتفسير كتاب الله تعالى فتمتع الناس بتفسير فريد

لكتاب معجز فريد خالد .

وحتى لا يقال : إن هذا الكلام ضرب في التيه ، فإننا ندلل على ما تذهب إليه بالأمثلة التطبيقية المصحوبة بالشرح والبيان ، ولنأخذ مثلا تفسيره قوله تعالى من سورة «التوبة» : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥ـ ٧٧] .

قال ~ : «من المنافقين من عاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه ليبذلن الصدقة وليصلحن العمل ، ولكن هذا العهد إنما كان في وقت فقره وعسرته في وقت الرجاء والطمع فلما استجاب الله له ورزقه من فضله نسي عهده وتنكر لوعده وأدركه الشح والبخل ، فقبض يده ، وتولى معرضا عن الوفاء بما عاهد » .

ثم قال : «والنفس البشرية ضعيفة شحيحة إلا من عصم الله وتطهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان وترتفع على ضرورات الأرض وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب لأنها تؤمل في خلف أعظم وتؤمل في رضوان من الله أكبر » .

ثم قال : «فأما حين يقفز القلب من الإيمان الصحيح فالشح الفطري يهيج في نفسه كلما دعي إلى نفقة أو صدقة والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل ثم يبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار »[1] .

ألست ترى معي من هذا الشرح إشراقة البيان وحلاوة في التعبير؟ لاحظ مثلا قوله : «والنفس البشرية ضعيفة شحيحة إلا من عصم الله ، ولا تظهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان وترتفع على ضرورات الأرض وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب » .

---

(١) المجلد ٤ ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

ولاحظ في قوله : «فأما حين يقفز القلب من الإيمان الصحيح فالشح الفطري يهيج في نفسه كلما دعي إلى نفقة أو صدقة ، والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل ثم يبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار » .

ألست ترى معي أيضا إشراقة في البيان ، وجمالا في الصياغة دون تعمل ، فأي مفسر يمكن أن يفسر بهذا البيان الفريد الذي يعتمد التأنق بعفوية دون أي تكلف ، لكون ريشة صاحبه تسعى على الورق ترسم الأفكار والخواطر بتلقائية واسترسال تحس من خلاله بهذه الريشة تنتفض بين أصابعه طيعة ريضة فرحة جذلى يشع منها الإشراق البياني .

فالصورة البيانية التي يقدمها سيد عن القلب المقمر مثلا من الإيمان وكأنه ربع خلا من كل أسباب الحياة ، وعن النتائج التي يؤدي إليها من شح يبعث في صحابه الحيرة والاضطراب خير بيان لهذا البيان المعجز الذي يعلو ولا يعلى عليه بحال من الأحوال .

في الحق أن البنية التعبيرية عند سيد تستدعي دراسة خاصة لكونها غنية ، بمظاهر الجمالية والخصائص البيانية المتميزة وحسبنا هذه الإشارة تنبه الباحثين على ذلك لعلهم ينهضون بهذا العمل الجليل ، ولو بقي لنا في العمر فسحة لعدنا إلى هذا المبحث بالدرس والتحليل في كتاب مستقل إن شاء الله تعالى .

وقد مر بنا أن الشهيد بجانب أنه مفكر إسلامي ومفسر ناقد وأديب وشاعر وقصاص وكاتب ، ضرب بسهم وافر في مجال الإبداع الأدبي والنقدي ، الأمر الذي ساهم إسهاما فعالا في دفعه إلى ميدان البحث الجمالي ، وميدان التفسير ، ويكفل له النجاح والتوفيق الكبيرين .

وإنه لجميل جدا أن يكون المفسر صاحب ريشة على هذا النمط ، لأن من كانت ريشته على هذا المستوى أو ما يقارب هذا المستوى استطاع أن يشيع في المباحث

العلمية جوا من الجمال والطلاوة يخفف من حدة الجفاف العلمي ، وتساير مناخ القرآن الكريم العطر الذي قد تشوهه أساليب جافة .

ب ـ اختيار اللفظة :

إن البنية التعبيرية عند سيد قطب في «الظلال» وحتى غير «الظلال» تتميز باختيار الألفاظ ، ولست أقصد باختيار الألفاظ هنا تصيد الألفاظ بطريقة متكلفة ـ كما قد يتبادر إلى الذهن ـ لا ، وإنما أقصد أن لسيد قطب معجما لغويا ثريا ينهل منه متى شاء دون تعمل أو صنعة ، فيستعمل الكلمة في سياقها مستقرة مطمئنة ناضجة بعيدة عن الابتذال ، طلية رقيقة عذبة قريبة إلى الفطرة ، وما لنا نسترسل في الكلام دون أن نستدل بالأمثلة وبالأمثلة تتضح الحقائق .

على سبيل المثال تفسيره قوله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] ، يقول : «الحمد هو الشعور الذي يفيض به القلب المؤمن بمجرد ذكره الله ، فإن وجوده ابتداء ليس إلا فيضا من فيوضات النعمة الإلهية التي تستجيش الحمد والثناء ، وفي كل لمحة وفي كل لحظة وفي كل خطوة تتوالى آلاء الله وتتواكب وتتجمع وتغمر خلائقه كلها وبخاصة هذا الإنسان »[(١)] .

فانظر معي قوله : «الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن ، ففعل «يفيض »قد ورد في سياقه المناسب المختار ، وأشاع فيه جمالا خاصا وذلك حين يتصور القارئ الشعور يفيض به قلب المؤمن فاللفظة تحمل معها إذا ، شحنة قوية من المشاعر الإيمانية .

وانظر معي قوله : «فإن وجوده ابتداء ليس إلا فيضا من فيوضات النعمة الإلهية التي تستجيش الحمد والثناء ، فكلمة فيوضات النعمة وفعل «يستجيش »كل واحد

(١) المجلد ١ ، ص ١٦ .

منهما في سياقه المناسب المختار ، قد أطلق في فضاء التعبير روحا وأنسا تحلق بالإنسان في أجواء الانتشاء والتوهج والتألق ، وليس من شك عندي أن التوسل بالصورة الأدبية المتمثلة في تعبير «فيوضات النعمة الإلهية» وتعبير «يستجيش الحمد والثناء» اضطلع كل واحد منهما برسم اللوحة الفنية الجميلة الآسرة ، على حين أي مفسر آخر يفسر ما فسره سيد قطب سابقا تفسيرا عاديا ، لأن همه الأول والأخير هو تقديم الفكرة أن يمتع القارئ بإشراقه الباني المتميز .

جـ ـ الابتكار :

حين نقول الابتكار نعني بذلك ما تميزت به صياغة سيد قطب الأسلوبية من جدة في السبك ، وتوهج في التعبير يحفل بالدلالات تستحثك على المضي في القراءة فلا تشعر بالملل ، لأنه يوفر لك أسباب المتعة .

فأنت حين تقرأ «الظلال» تحس ف أثناء القراءة بشوق لا ينقطع يدفعك إلى الاستزادة والاستزادة وأقول هذا عن تجربة وخبرة .

وأقدم لك مثالا على ذلك والحقائق ـ كما قلت سابقا عن طريق الأمثلة التطبيقية ـ يقول في تفسير قوله تعالى من سورة آل عمران : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٢١] .

«والإشارة هنا إلى غدو النبي ﷺ من بيت عائشة < وقد لبس لأمته ودرعة بعد التشاور في الأمر وما انتهى إليه من عزمه على الخروج من المدينة للقاء المشركين خارجها ، ثم يقول : «ويا له من مشهد الله حاضره ويا له من موقف الله شاهده ويا لها من رهبة إذن ومن روعة تحف به وتخالط كل ما دار فيه من تشاور والسرائر مكشوفة فيه لله ، وهو يسمع ما تقوله الألسنة ويعلم ما تهمس به الضمائر »[(١)] .

---

(١) المجلد ٢ ، ص ٦٥ .

ألست ترى معي أن العبارات السابقة تتألف متساوقة فيما بينها بما حفلت به من مميزات خاصة كأسلوب التعجب على غير الصيغة القياسية [١] للتعجب إمعانا في إبراز وزن المشهد الله حاضره! ووزن الموقف الله شاهده! وجمل حاليا كذلك تصور أحوال المشاهد مما يرسم جوا من الانشراح والإيناس داخل النص : «ويا له من مشهد الله حاضره!» ، «ويا له من موقف الله شاهده! » ، «ويا لها من رهبة إذن ، ومن روعة تحف به وتخالط كل ما دار فيه من تشاور » ، «والسرائر مكشوفة فيه لله » «وهو يسمع ما تقوله الألسنة ويعلم ما تهمس له الضمائر » .

د ـ الحركة والتشخيص :

بجانب ما رأينا من خصائص البنية التعبيرية عند سيد قطب في «الظلال» فإن هناك خصيصة أخرى جد مهمة تضاف إلى هذه الخصائص هي الحركة والتشخيص .

إن البنية التعبيرية عند سيد في «الظلال» خصوصا وفي غيره من أعماله الأدبية عموما تتميز بالحركة والتشخيص ، وحين نقول الحركة والتشخيص فإننا نعني بذلك خلع الحياة على الفكرة ، وجعلها تتموج حركة ، وسيد قطب رزق حركة مشخصة تلتقط في مهارة فتنقل لنا الحقائق الخارجية وتضفي عليها ظلالا زاهية ، وليس هذا بدعا بالقياس إلى رجل كسيد قطب شاعر قصاص أديب ناقد ، وقد يسأل من يسأل بأن قضية الحركة والتشخيص قضية تتعلق بالنص الأدبي ولا تتعلق بالمباحث ، والجواب ـ وقد سبق الإشارة إلى هذا ـ بأن هذه المباحث في الحقيقة مباحث بيانية ترتبط بدراسة الإعجاز البياني القرآني بالإضافة إلى أنها تفسير لكتاب معجز في البيان ، الأمر الذي جعل سيدا يحاول بتصوره البشري أن يقترب من هذا

---

(١) للتعجب أساليب متعددة لا يمكن حصرها وتفهم بحسب القرينة منها «يا له يا لك إلخ» أما القياسي فصيغتان ما أفعله وأفعل به ، ولصياغة ذلك شروط ، وإلى ذلك أشار ابن مالك في الألفية فقال :

بأفعل انطلق بعد ما تعجبا أو جيء بأفعل قبل مجرور بيا

الجو الرباني بهذا التناول الفني الفريد .

وكما قلت سالفا إن الحقائق تتجلى بالأمثلة التطبيقية ، ويجب التنبيه إن ظاهرة التشخيص هذه ليست ظاهرة عامة في كل ما كتبه في «الظلال» بل هي ظاهرة تبرز في مواضيع كموضوع السلام مثلا أو الرحمة أو موضوع نعيم الجنة أو ما يتعلق بمشهد من مشاهد الطبيعة أو قصص الأنبياء قصص الأمم الغابرة ، وتختفي هذه الظاهرة في غير ذلك فهي إذا تتبع طبيعة الموضوع يقول سيد قطب في فقرة من مقدمة مجموعة آيات من سورة الأعراف تبدأ بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٩] ، «ونحن مع موكب الإيمان ، هذه أعلامه وهذه علائمه وهذه معالم طريقه وهو يواجه البشرية في رحلتها الطويلة على هذا الكوكب الأرضي يواجهها كلما التوت بها الطريق وكلما انحرفت عن صراط الله المستقيم وكلما تفرقت بها السبل تحت ضغط الشهوات التي يقودها الشيطان من حطامها محاولا أن يرضي حقده »[1] .

إن هذه الفقرة كلها تتساوق فيما بينها بما فيها من حركة وتشخيص تعتمد كل وسائل الصور الأدبية «موكب يواجه البشرية في رحلتها الطويلة »«كلما انحرفت عن صراط الله المستقيم »«ضغط الشهوات يقودها الشيطان من حطامها ».

وهكذا يقدم لك الأفكار ، وكأنك تشاهدها تتحرك على الساحة ، وكأنك تشاهدها تتحرك على الساحة ، وكأنك تراها وتعيش معها روحا وشعورا متمتعا بجو ريان .

وهكذا يقربك سيد من البيان القرآني ، ويعود تذوقه وحدك فيما بعد بدون أن ترجع إليه مستفتيا وتلك هي المرامي المتوخاة من «الظلال» .

---

(١) المجلد ٣ ، ص ٥٣٥ .

هـ ـ صدق التعبير ونداوته :

تشيع في البنية التعبيرية في «الظلال» عاطفة صدق ونداوة شعور ، ولا أكون مبالغا إذا قلت : إن كل حرف من حروف «الظلال» يتموج عاطفة صدق ، ذلك أن سيدا حين كتب تفسيره هذا كان قد نضج فكره الإسلامي ، ووضحت لديه الرؤية الإسلامية ، وارتقى إلى مستوى من الإيمان جعله يضحي من أجله بالمال والجاه والدنيا ، فلا عجب إذا جاء تفسيره مرآة صقيلة لفكره الإسلامي الحق وإيمانه الصادق الرهيف .

جاء «الظلال» لذلك ، ممهورا بصدقه موقعا بإخلاصه ، مطبوعا بالحب في الله ، مختوما بدم الشهادة الزكي الطاهر ، فاقرأ «الظلال» تجد كل كلمة تطلع إشعاعا من الإيمان الملتهب ، وضياء من الصدق يبوح لك بالنداوة العطرة ويفضي لك بسر الشفافية المحببة .

و ـ الهمس الموسيقي :

مر بنا أن البنية التعبيرية عند سيد قطب تتميز بالإشراق البياني ، واختيار اللفظة المناسبة وبتوهج العاطفة المناسبة ، ولاشك أن هذه الخصائص الفنية إذا ما احتضنها نص نثري انساب في تضاعيفه همس موسيقي ، ذلك الهمس الذي لا يعتمد على وحدات مكررة ، كما في الشعر ، فالشعر يخضع لنسق صوتي معين نسميه بحرا .

أما الهمس الموسيقي في النثر فيستمد حياته من الخصائص الفنية السابقة إن استطاع الكاتب أن يوفق بينها في تساوق تام ، وقد يكون من بين ما يؤلف قيم الهمس الموسيقي السجع والازدواج والموازنة وغيرها من المحسنات البديعية ، ولكن ينبغي ألا يكون هذا مطلبا أساسيا ، إذ الكاتب قد يعتمد على غيرها ، فهي إذا من جملة ما يسهم في إبراز القيم الموسيقية في النثر ، فالهمس بالجملة والتفصيل يحصل بسبب تلاؤم الكلمات وتوافقها وحلاوة جرسها وتجاوبها الداخلي .

وإليك نمطا من هذا الهمس ، وذلك عند تفسيره قوله تعالى من سورة الحاقة : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨] ، «فالكل مكشوف الجسد مكشوف النفس مكشوف القيم مكشوف العمل مكشوف المصير وتسقط جميع الأستار التي تحجب الأسرار وتتعرى النفوس تعري الأجساد وتبرز الغيوب بروز الشهود ويتجرد الإنسان من حيطته .

ثم يقول : «وما أقسى الفضيحة على الملأ وما أخزاها على عيون الجموع أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في آن »[1] .

ترى إذا أن النص يحتوي همسا موسيقيا ولاشك ، إذ يتميز بإشراق بياني جميل واختيار اللفظة ، وتشخيص للمعاني والتنويع بين أنماط من الأساليب الفنية وصبها في قالب تنسجم فيه متحابة متصافية مما يطلع جوا منغما ، فلاحظ معي هذه الجملة وكيف تتكرر كلمة «مكشوف »دون أن نحدث ملا في لنفس أو خدشا في السمع فالكل مكشوف ، مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ، مكشوف الضمير ، مكشوف العمل ، مكشوف المصير ».

ولاحظ معي هذه الجمل كيف تتوازن في سجعها أو تتآلف في ازدواجها بطريقة مغرية محببة تشرق فيها العضوية ، وما يشير إليه فيها المفعول المطلق المبين نوع عامله والمتمثل في «تعري» و «بروز»[2] «وسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار وتتعرى النفوس تعري الأجساد وتبرز الغيوب بروز الشهود ».

---

(١) المجلد ٨ ، ص ٢٥٤ .

(٢) المفعول المطلق على ثلاثة أنواع : **الأول** : أن يكون مؤكدا نحو ضربت ضربا ، **والثاني** : أن يكون مبينا النوع ـ وهو الشاهد عندنا ـ نحو سرت سير الرشيد **والثالث** : أن يكون مبينا العدد نحو ضربت ضربتين وإلى هذا أشار ابن مالك في قوله :

توكيدا أو نوعا يبين أو عدد كسرت سيرتين سير ذي رشد

ولاحظ معي «أفعل التعجب» كيف اطمأن في محله مستقرا بائحا بما يسود الموقف من جو الفضيحة الساقط .

« ما أقسى الفضيحة على الملأ وما أخزاها على عيون الجموع ، وأما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن » .

وهكذا تتوالى الأساليب جميلة بهذه الوسائل الجمالية الفنية ، مترابطة فيما بينها يشيع فيها الهمس الموسيقي الحلو الطروب الحالم ، يخدم البيان القرآني المعجز مما يجعلنا نقرر بأن «الظلال» كتاب مهم في النثر الفني في الأدب العربي الحديث ، بجانب أن كتاب تفسير يتصدر كتب التفسير بما يتميز به من خصائص متفردة .

*****